

باقٍ من الزمن ربع الساعة



بدت قلقلة مضطربة، وقد زاغت منها العينان، وارتجمت اليidan مع دقات قلبها التي تتبع مسرعة، وكأنّها تجري منذ وقت طويل.. كانت لا تصدق نفسها أنّ الوقت قد أزف، وأنّ الزمن المحدد قد أوشك على الإنتهاء.. انتابتها حالة من البكاء رغمًا عنها مع ثورة عارمة في نفسها من الندم، بدت واضحة على قسمات وجهها الحزين.. كان ذلك حين اخترق صوت المراقب أذنها وسط قاعة الامتحان التي اكتظت بها وبينها من الطلبة والطالبات وهو يعلن.. باقٍ من الزمن نصف الساعة.

لقد أصابها ذلك بالفجيعة لفقدان الوقت الذي انسلاخ من بين يديها في غمرة سهوها، وعدم تقديرها الدقيق له، وهالها ذلك الموقف من نفسها حيث لم تدرك قيمته ولم تقسّمه أو تنظرّه حسب عدد الأسئلة التي أمامها مدونة في ورقة الإختبار.. لقد كانت ثلاثة أسئلة كبيرة، وكل سؤال يتفرع منه عدة أسئلة أخرى، لكن الوقت قد صاع، وتفلت منها من حيث لا تشعر، وهي بعد لم تتم الإجابة على كل الأسئلة حتى تصل إلى درجة النجاح التي تمناها، وترغب في الحصول عليها.

- تقصير وتفريط:

حاولت أن تهدأ لكنها فشلت؛ فقد أخذ الإضطراب منها كل مأخذ، ومع ذلك فإنّ الأمل ظلّ يراودها ويدعوها؛ لتناول من جديد ولا تيأس.. أمسكت بالقلم وبدأت من جديد، لكنها في هذه المرّة مددّتها

صعوبة السؤال بالنسبة لها، وأيقنت للمرة الثانية كم هي مقصورة مفرطة حيث لم تعمل حساباً لتلك الساعة، ولم تدرب نفسها طوال العام على حل الأسئلة المختلفة في هذه المادة التي تختبر فيها، فقد كانت تظن أنها أسهل من ذلك بكثير؛ لذا، فلم تُكْلِّف نفسها مشقة عناي المذاكرة، وعناء مشقة السهر معها؛ فكان ما كان من نسيان وتعثر.. وكما قال القائل: لا يُنال العلم براحة الجسد.

وبدأ صوت المراقب من حين آخر يردد: باقٍ من الزمن ربع الساعة.. عشر دقائق.. خمس دقائق.. دقيقتان ونجمع ورق الإجابة.. دقيقة واحدة لا غير.

وشعر المراقب يجمع الأوراق، وهي لا تكاد تصدق أنَّ الوقت قد مضى بهذه السرعة العجيبة، وأن ذاكرتها قد خدعتها وخانتها بهذه الطريقة: فجلست تفكّر وهي واجمة.

ومع دموعها التي انسابت على وجنتيها جعلها تفكّرها إلى أبعد من قاعة الامتحان، وسرح بها الخيال، وأخذها إلى مكان أوسع وامتحان أكبر، ليس فيه عَوْد، ولا إعادة ولا اختيار، فهي إما أن تجيب على أسئلته فتنجح إلى الأبد، وإما أن تتعرّض لفتسقط وتقع إلى غير نهوض إلى الأبد أيضاً.

- قيمة الوقت:

وتفكرت في نفسها، ولأوَّل مرَّة تدرك حقيقة قيمة الوقت، وتعي قول النبي (ص): "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ". وتحرك قلبها بعد أن لامس الإيمان أو تاره؛ فهزّها؛ ليحدث فيه صوتاً جميلاً من آهات الندم ودعوات التوبّة وقد استقبل شحنات إضافية إيمانية من قاعة الامتحان القابعة على أرض الجامعة التي تدرس فيها.

عاشت بقلبها وروحها لحظات الامتحان النهائي لها في مدرسة الحياة؛ لترى نفسها وهي في سكرات الموت، وقد جاءها الأجل المحتموم، وانتهت وقت الجد والإستذكار رغمَّ عنها ما حدث في هذا الامتحان الآن.. هاهم الأهل يحيطون بها، والروح تُمْتَحَن وتُخْتَبَر، لكنها في تلك اللحظات الحرجية هي فقط مَن تواجه أسئلة الامتحان، وهي المخاطبة بها دون الحاضرين الملتفين حولها، وهي بلا شك تحتاج للنجاح والفوز فيه.

- لحظات الإحتضار:

عاشت مع نفسها لحظات الإحتضار تلك حيث تمنى أن تُؤخَر ساعة من الزمزد؛ ل تستعد أكثر لنجاح أكبر في دار الخلود، إنَّ لها آمالاً عريضة وأماناً كثيرة، إنَّها تريد لها في الجنة بيتاً.. لا بل قصراً.. ت يريد غراساً في قيعانها وأنهاراً، لكن الأمر ليس بالتمني فقط، وإنما تعالى يقول: (لَيَسْ
بِأَمَانَتِي كُمْ وَلَا أَمَانَتِي أَهْلُ الْكِتَابَ مَنْ يَعْمَلُ سُوءاً يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ
لَهُ مِنْ دُونِ الدَّاهِ وَلِيَمَا وَلَمْ يَرَى * وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْمُسَالِحَاتِ مِنْ
ذَكَرِهِ أَوْ أُرْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
زَقِيرٌ) (النساء / 124-123).

وتتوالى الأماني على خاطرها تدق باب قلبها، وتستنهض همتها الراكدة في بحر الشهوات الغارقة في لحج الحياة الدنيا، التي ستفارقها عمّا قليل حين تبلغ الروح الحلقوم.. (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ

الْجُلْفُومَ * وَأَزْتَهُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَزَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مَنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) (الواقعة/ 83-85).

إِنَّهَا ت يريد أن تتوب إلى الله، وتترد المظلالم لأهلها.. أن تستسمح من ظلمته، وتتصالح مع من خاصمته، أن تبرئ ذمتها ممن اغتابته.. أن تصل أرحامها وتبرأ أباها وأمها، أن تخرج زكاتها وتظهر مالها، أن تحافظ على صلاتها وتصلح من حجابها، أن تحسن خلقها وتحب أخواتها، أن.. وأن.. وأن.. وأن..

أن تعمل عملاً صالحاً قبل أن ينتهي وقت الاختبار وتذهب ساعتها.. (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فَيَمْلَأُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلٌ هَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَيْهِمْ يُبَدِّعُونَ) (المؤمنون/ 99)، قبل أن تطلب الفرصة فلا تمنحها، وتحتمى العودة فلا تنالها وتريد الأوبة فلا تقبل منها.. حيث لا فرصة حينها ولا عودة ولا أوبة.. إنَّهَا تتمى أن ترجع لكن ليس من أجل الأهل أو العشيرة أو الصديقات.. بل لتنستزيد من أعمال البر والتقوى.. لكن الجواب يتتردد على مسامعها: (.. إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (يونس/ 49).

- تمذّي الرجعة:

أتريدين العودة وتحتمى الرجعة؟ ألم تستمعي إلى الأيام والليالي وهي تخاطبك بمجيئها وإنقضائها؟ أو ما جاءك النذير في طلوع شمس كل يوم ومجيبها، وفي إكمال الأهلة وذها بها، وفي تفلت وقت الإمتحان من بين يديك؟ وما من يوم إلا يقول: ابن آدم، قد دخلت عليك اليوم ولن أرجع إليك فانظر ماذا تفعل في.. إنما أنت أيام مجموعة، كلما مضى يوم مضى بعضاً.. ابن آدم، اغتنمتني لعله لا يوم لك بعدى، أنا الذي قدمت عليكم جديداً وقد حان مني تصرّم، فلا يستطيع محسن أن يزداد في "إحساناً"، ولا يستطيع مسيء أساء أن يستعتب في من إساءته، فإذا ما انتهى وقت اليوم وانصرم؛ فإِنَّه قد مات إلى الأبد، لكن ما اكتسبه المرء فيه قد حسب له أو عليه.

سالت دموعها بين يديها تأثراً وندماً، وفي لمح البصر، وجدت نفسها وقد انتقلت إلى امتحان أكبر من سابقه.. وقد وقفت بين يدي الله عز وجل للسؤال، وتدكرت قول النبي (ص) "ليس منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بيته وبينه ترجمان يترجم له ولا حاجب يحجبه، فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقول: "بلى، ثم" يقول: ألم أؤتك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. ونظرت إلى نفسها وأشفقت عليها، ليت شعري ماذا سيكون من شأنني في هذا الإمتحان الصعب؟ وماذا ستكون الإجابة؟ فزعت من هول هذا المنظر وخشي من الخزي والندامة، هل تراها ستنجو حقاً وتنجح فتفوز، أم تقع وتسقط مع الهالكين..

- تساؤلات شتى:

دوامات من القلق تحيط بها وسحابات من الكآبة تعلو وجهها، وتساؤلات شتى تدور برأسها.. كيف أتلقي كتابي يوم حشر؟ وما النتيجة يوم حسابي؟ وكيف الحال وسط هذا الحشد الهائل من البشر من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى يوم الدين؟ أي فضيحة تلك؛ إذ تعلن النتائج على رؤوس الأشهاد وأمام الملأ

جميعاً؟ عفوك يا أم، غفرانك يا حليم.. سترك يا ستير.. أسبغ علينا واسع رحمتك.

رأت نفسها وهي تتسلّم نتائج الإختبار الحقيقي النهائي وهي التي تخشى أن ترسّب في إمتحان عامها الدراسي ذاك، ستلتقي النتيجة المعلن عنها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.. (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفَقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيُلَمَّدُوا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَفِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف/ 18)، شهقت من هول الموقف ودق قلبها في خوف ووجل، وبطريقة لا شورية مدّ يدها وبسطتها لتأخذ النتيجة وتسلّمها، لكنها أفاقت من شرودها على إثر دمعة حارة سقطت على خدّها، وشعرت بحرارة الإيمان تسري وتنوقد في قلبها، تختلط بأصوات من حولها من الصديقات اللاتي أحسسن بما تعانيه، وإحترمن سكوتها وصمتها، وقدرن مشاعرها ورغبتها في عدم الكلام..

أما هي فقد أيقنت أن من وراء كل محنّة منحة، وأن في هذا درساً عظيماً لها لن تنساه ما كانت تشعر به إلا في قاعة الامتحان التي ضمتها، شعرت أرّها قد استفادت من هذه التجربة المريرة، وأفاقت من غفلتها وتداركت تصمیرها وتسويفها فرددت في نفسها تستحثها: هيّا يا نفس.. هلمي وانهضي.. فما زال وقت إمتحانك جارياً، فجدّي واجتهدي تنجحي وتسلّمي.. في الدنيا والآخرة.